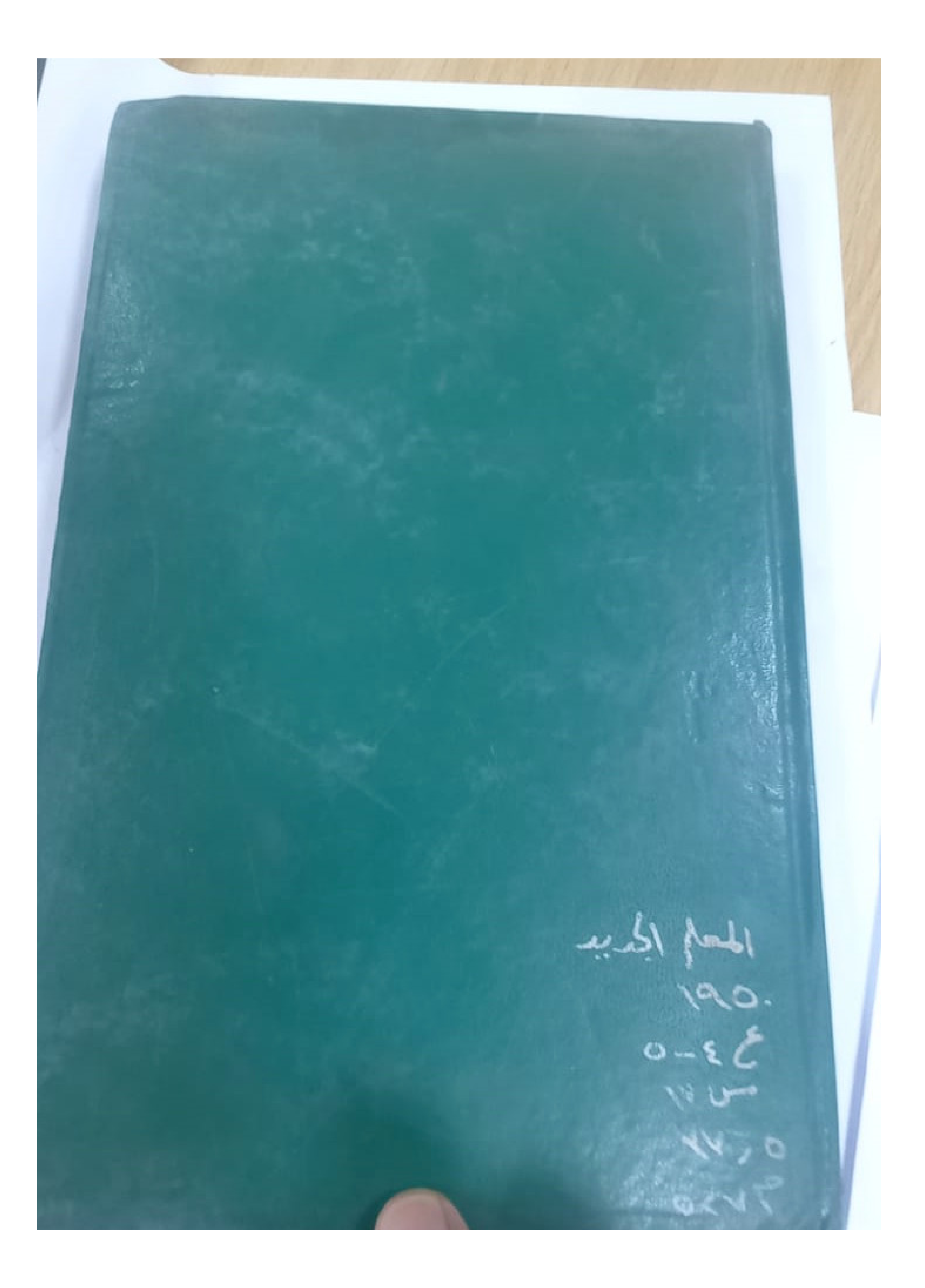

المعلم الجديد
١٩٥٠
ع ٤-٥
س

١٩٥٠

المعلم الجديد

السنة الثالثة عشرة

الجزءان الرابع والخامس

ثبت الجزء

الاتجاهات الحديثة فى علم النفس

بقلم : الدكتور نورى جعفر
مدرس فى التربية بدار المعلمين العالية

علم النفس من العلوم التى نمت نماءا[١] مطردا منذ نشأتها حتى اليوم . وقد كان هذا العلم حتى زمن قريب جزءا من الفلسفة ليس له كيان خاص ولا أهمية ملحوظة . اذ كان اهتمامه منصبا على دراسة « العقل » الفلسفى القديم[٢] . وقد بقى علم النفس ، اذا جاز أن نسميه علما ، بعيدا عن معرفة طبيعة الانسان التى حاول عبثا البحث عنها . ونتج عن اخفاقه فى معرفة كنه الانسان عدم قدرته على تعديل سلوك الانسان وتوجيهه توجيها صحيحا.

وأول من استعمل كلمة علم النفس (والافضل أن نقول علم العقل Psychology) على ما نظن ، الكاتب ميلانجثون عام ١٥٥٠ قاصدا بها تلك المعرفة التى تتعلق بحياة الانسان من الناحية العقلية . ويكون الاستاذ المذكور ، اذا صح ما ذهبنا اليه ، من أوائل الداعين الى فصل علم النفس عن أمه الفلسفة . كما فعل غيره من المفكرين فيما يختص بفصل علم الطبيعة (الفيزياء) عن الفلسفة كذلك .

وينقسم المفكرون على وجه العموم الى قسمين فيما يختص بمركز علم النفس من الناحية العلمية . فقسم من المفكرين والكتاب يعدونه علما كسائر العلوم الطبيعية والاجتماعية . وآخرون يخالفونهم الرأى وينكرون على هذا

---

(١) المعلم الجديد : النماء أحد مصادر الفعل ، نمى ، ينمى . كرمى يرمى ، وهو أفصح من نما ينمو .

(٢) لقد مر معنا بحث العقل فى مقال نشرناه فى الجزء الثانى من المعلم الجديد لسنتها الثالثة عشرة مارت ١٩٥٠ تحت عنوان « العقل : بين أنصاره وخصومه » والعقل بمعناه الفلسفى القديم ، يعنى شيئا معنويا لا يحتل جزءا من الفراغ ، ولكنه مع هذا موجود داخل جسم الانسان (ويرجح أن يكون فى الدماغ) وهو مصدر الفرح والحزن والحب والكره والارادة والتفكير .

١٤

الموضوع صفته العلمية . ولعل السبب فى ذلك ، هو اختلاف الفريقين فى معنى كلمة علم فهى وان كانت كلمة واحدة الا أنها ذات معان عديدة . يعتقد كثير من الناس بأن العلم مجموعة حقائق ثابتة وما عدا ذلك فليس علما . وقد فات هؤلاء أن ثبوت الحقائق شيء نسبى لا مطلق . وان الحقائق العلمية والقوانين العلمية معرضة لتحوير وتغيير مستمرين . وان كافة القوانين العلمية تقريبا (حتى الرياضية منها) انما هى نسبية تعمل فى مجالات معينة لا تتعداها . فالمعادلة ٢ + ٢ لا تساوى أربعة فى جميع الحالات . فحجمان من الكحول + حجمين من الماء لا تساوى أربعة حجوم مخلوطة . اذ أن المساحة التى تشغلها جزيئات كل من هذين السائلين تعتمد على مدى تقارب جزيئات ذلك السائل . فعندما يخلط سائلان يختلف مدى تقارب جزيئات أحدهما عنه فى السائل الآخر تنفذ جزيئات السائل الاكثر تقاربا داخل السائل الآخر . وتكون النتيجة مثل مزج عدد من البرتقال مع عدد من الرقى حيث ينفذ البرتقال من بين الفراغات الحاصلة بين الرقى . وبعض البديهيات المعروفة فى الهندسة الاقليديسية المستوية قد نقض اطلاقها كثير من العلماء . فالقول بأنه لايمكن امرار أكثر من مواز واحد لخط مستقيم من نقطة خارجة عنه قد أدى الى قول الرياضى الروسى الشهير لوباكو فشكى عام ١٨٢٦ بأنه يمكن امرار أكثر من مواز واحد لمستقيم من نقطة خارجة عنه . كما أدى ذلك بدوره الى قول « البتى » الى أنه لايمكن امرار ولا مواز واحد لخط مستقيم من نقطة خارجة عنه ـ وقد أدى هذا القول كذلك الى تغيير جوهرى فى نظرة الانسان الى الكون كما يراه آنشتين وغيره من العلماء . ويذهب بعض المتطرفين القائلين بأن العلم مجموعة من الحقائق الثابتة الى اعتبار الرياضيات وحدها علما مضبوطا وما عداها فعلوم تقريبية أقل ضبطا منها . ويميل فريق آخر الى اعتبار المنطق علما الى جانب الرياضيات . ويتزعم الفريق الثانى كل من الفيلسوف الانكليزى الذائع الصيت برتر ندرسل وزميله كرناب . وقد شرح الاول رأيه فى هذه القضية ، بعد أن أعلن خروجه على الفلسفة الواقعية قبل بضع سنوات ، فى كثير من كتاباته وخاصة كتابه المدعو « تحقيق فى المعنى والحقيقة » كما بين زميله رأيه فى كتابه « أسس

المنطق والرياضيات • • وكثير من أنصار هذا المذهب لا يعدون حتى الفيزياء والكيمياء علوما بالمعنى المضبوط بله الفيزيولوجي والبايولوجي والموضوعات الاجتماعية ، كالتاريخ وعلم الاجتماع وعلم النفس وما شاكلها • ويعتبر هذا الفريق من المفكرين العلماء أناسا يعملون على زيادة رصيد الانسانية من الحقائق الثابتة وغير المتغيرة بتغير الزمان والمكان لانها تبحث فى طبيعة الاشياء وهذه الطبيعة – على رأيهم – واحدة مهما اختلفت الظروف والاحوال •

أما الفريق الثانى من المفكرين فيقصد بكلمة العلم عادة ، الطريقة العلمية لا المعرفة التى نسميها علما • والطريقة العلمية بنظرهم هى الاسلوب الذى يستعمله العالم فى مختبره حين يلاحظ الظواهر الطبيعية ملاحظة مجردة ويجمع المعلومات المتعلقة بموضوعه ويقارنها مستقرئا منها قانونا عاما يطبقه على الحالات المتشابهة فى المستقبل • وقد شرح هذه الطريقة شرحا مستفيضا الاستاذ جون ديوى وعرفت عند كثير من المربين ، بخطوات ديوى فى التفكير • وهى مغايرة لخطوات هربارت المعروفة فى التدريس •

الحق أن رأيى الفريقين متكاملان لا متعارضان • اذ لا يمكن فصل الطريقة عن المادة(٣) • وان الحقائق العلمية ، فى الواقع ، لا تكون علمية بالمعنى المراد الا اذا توصلنا اليها بواسطة الطريقة العلمية نفسها • والاتجاه الحديث عند كثير من العلماء المعاصرين هو اعتبار الطريقة العلمية (دون اهمال المكتشفات العلمية) الشريان الرئيس للعلم • ذلك لأن الطريقة ، من حيث أسسها ، ثابتة • أما المكتشفات العلمية والقوانين ذاتها فتتعرض فى العادة الى كثير من عوامل التغيير أو التحوير أو التبديل • غير أن مثل هذا التغيير أو التبديل لا يكتسب صفته العلمية الا اذا تم بواسطة الطريقة العلمية ذاتها • واذا تم بهذا الشكل عد ذلك نصرا للطريقة العلمية لا فشلا لها •

---

(٣) ان الفصل بين الطريقة والمادة ما هو الا فصل نظرى مصطنع غايته دراسة كل منهما على حدة • اذ فى الواقع أنهما متلازمان أشد التلازم • فهل يمكن فصل طريقة الاكل عن الطعام أو طريقة النجارة عن الخشب ؟ والاعتقاد الشائع عند بعض المربين بأنه فى الاستطاعة تعليم طريقة تدريس مادة معينة (دون علم بتلك المادة) قول من الاقوال التى لا يمكن الركون اليهـا •

وفى تاريخ العلم الشيء الكثير من الأمثلة على ذلك منها : (قوانين نيوتن فى الفيزياء والتعديلات التى أجراها على بعضها آنشتين وقوانين مندل فى الوراثة مع التعديلات التى أجراها عليها جوليان هكسلى وكثير من النظريات فى علم التشريح والبايولوجى والجغرافية ... الخ .) . والقول بأن العالم هو الذى يضيف شيئا جديدا الى حصة البشرية من الحقائق الثابتة قول ليس صحيحا على هذا الوجه من وجوه الاطلاق . واذا صدق على بعض المكتشفات العلمية التافهة فانه لا ينطبق على القوانين العلمية الاساسية . اذ أن العالم ، كما المعنا قد يهدم كثيرا من القوانين التى بناها أسلافه قبل أن يبدأ بعمله الانشائى .

ولم يتقدم العلم تقدما محسوسا الا بعد أن خلع فكرة البحث عن طبائع الاشياء ، واهتم عوضا عن ذلك بالبحث عن علاقاتها . اذ يسعى العالم فى مختبره الى وضع كثير من المواد والحقائق بأشكال جديدة لاحداث علاقات جديدة بينها يستدل عن طريقها على خصائص تلك المواد . وما تقدم علمى الفيزياء والكيمياء ، هذا التقدم الواضح ، الا نتيجة سيطرة المشتغلين بهما على كثير من المواد وتمكنهم من اجراء تغيرات أساسية فى علاقاتها . فالعلم لا يحاول البحث عن جوهر الأشياء وانما يكشف عن سلوكها . وما تخلف الظواهر الاجتماعية عن اللحوق بالظواهر الطبيعية من حيث دقتها العلمية الا نتيجة لاهتمام المشتغلين فى القضايا الاجتماعية فى البحث عن طبائع الاشياء لا عن علاقاتها . ولم يتقدم علم النفس تقدما محسوسا الا بعد أن أقلع عن محاولة البحث عن جوهر العقل ونظر الى سلوك الكائن الحى نظرة مجردة أو قريبة من التجرد .

لقد بدأ البحث العلمى المنظم أول ما بدأ فى البحث عن أمور أبعد ما تكون عن الانسان . بدأ فى معرفة النجوم ومسالكها . ومن علم التنجيم تقدمت الطريقة العلمية ظافرة الى حقل الفيزياء والكيمياء ثم ولجت مجال الانسان فدخلت فى صميم تركيبه البايولوجى والفيزيولوجى . وهى الآن فى طريقها الى الدخول فى بحث الظواهر الاجتماعية المتعلقة بالافراد والجماعات . غير أن الصعوبة الكبرى فى هذا الصدد هى تعقد الظواهر الاجتماعية وتشابكها من جهة وخضوع الانسان لها (لا خضوعها له) من

جهة أخرى ، أى أن الانسان فى بحثه فى الظواهر الطبيعية يبحث فى أمور يستطيع السيطرة عليها – فيخضعها لارادته – . أما فى بحثه عن الظواهر الاجتماعية فانه يحول ذلوح ذوى وهو خاضع لها . هذا الى أن الباحث فى الظواهر الطبيعية كما أسلفنا يستطيع تجريدها عن بعضها وتغيير علاقاتها وسلوكها . أما المشتغل فى الظواهر الاجتماعية فليس فى استطاعته عمل ذلك نظرا لتداخل الظواهر الاجتماعية تداخلا يستحيل فصله . فاذا استطاع الكيميائى عزل الاوكسجين عن الهيدروجين فى تركيب الماء بسهولة فان المشتغل فى علم الاجتماع لا يستطيع مطلقا عزل أثر العامل الدينى مثلا عن أثر العامل الاقتصادى أو الجنسى فى تقرير سلوك الافراد والجماعات . أما ادعاء كارل ماركس بأن أساس المشاكل الاجتماعية كافة انما هو اقتصادى بحت (أو جنسى بحت كما يزعم فرويد) فقد أثبت تقدم العلم بطلانه . وقد استطاع المشتغلون بالقضايا النفسية بحث القوانين المتعلقة بسلوك بعض الحيوانات عن طريق اجراء التجارب العديدة فى المختبرات . أى أنهم حاولوا تقليد المشتغلين فى البحوث الكيمائية والفيزيائية . غير أن كثيرا من قوانينهم لا زالت فجة ومبالغا فيها الى حد كبير . ذلك لصعوبة السيطرة على سلوك الكائن الحى بالمقارنة بسهولة السيطرة على سلوك المادة فى علمى الفيزياء والكيمياء . ومن سوء حظ العلم أن تصل الحال بكثير من المشتغلين فى القضايا النفسية الى درجة المضاربة فى هـذا العلم والدجل الرخيص فى استعمال قوانينه ومحتوياته واتخاذها وسائل لقراءة أفكار الناس والتنبؤ بمستقبلهم .

غير أن علم النفس من الجهة الثانية كان قد تقدم ، منذ أوائل هذا القرن ، تقدما محسوسا . وتفرع نتيجة لهذا النمو الى فروع كثيرة يصعب حصرها . وانتقل من كونه علما وصفيا الى أن أصبح علما علاجيا يصف الظواهر النفسية كما يشاهدها فى سلوك الكائن الحى ثم يقترح ما يراه ملائما لعلاج المريض منها . ودخل علم النفس (أو علم السلوك بل علوم السلوك) كافة نواحى الحياة تقريبا . فاستعمل فى الاعلانات وفى المدارس وفى المستشفيات وفى المصانع وفى الصحافة وفى الاذاعة وفى دور الحكومة وفى كسب الاصدقاء والتأثير فى الناس وفى أشياء كثيرة . وأصبحت لدينا فى الواقع علوم للنفس يبلغ عددها نحو أربعين علما لكل منها دعاته ومجاله . أشهرها :

(١) علم نفس الشاذين – ويبحث ، كما يدل على ذلك اسمه ، فى سلوك الاشخاص الذين يخرجون ، فى قليل أو كثير ، عن المألوف عند جماعة من الناس فى زمن خاص وفى مكان معين ، سواء أكان خروجهم هذا أو شذوذهم ناتجا عن أمراض أو اضطرابات فيزيولوجية أو نفسية .

(٢) علم نفس الفعل أو علم النفس الوظيفى – وهو يبحث فى وظائف الجسم من الوجهة النفسية لا فى تركيب الاجهزة التى تصدر عنها تلك الوظائف . وقد قال به ، للمرة الاولى على ما نظن ، الاستاذ برنتانو عام ١٨٧٤ . وقد توسع كثيرا فى جامعة شيكاغو فى أوائل هذا القرن نتيجة لجهود جون ديوى وجورج ميد واتباعهما .

(٣) علم النفس التحليلى (لا التحليل النفسى) – أو علم نفس العقد الذى يبحث فى تحليل النفس تحليلا دقيقا على الطريقة التى جاء بها يونك سنة ١٩٢٥ . ويونك هذا كما هو معروف بدأ فرويديا متطرفا ثم انشق على استاذه لمبالغته ، على حد زعمه ، فى الاهتمام بالناحية الجنسية على حساب غيرها . وقد حاول يونك (عكس استاذه فرويد) ان يخفف من الضغط الذى وضعه استاذه على الغريزة الجنسية وأثرها فى سلوك الافراد والجماعات وان يضع بدلا من ذلك ضغطا أكثر من الضغط الذى وضعه فرويد على اللاشعور والعوامل المهيجة والامراض العصبية . ويونك يتبع أساليب مشابهة للاساليب الفرويدية فى التحليل ولكنه بدلا من أن يعزو معظم الامراض العصبية الى عوامل جنسية بحتة يحاول ارجاع الكثير منها الى اضطرابات عصبية ونفسية .

(٤) علم نفس الحيوان – وقد أوجده ثورنديايك سنة ١٨٩٨ . وهو يدرس سلوك الحيوان كالقطط والكلاب والقردة والفيران خصوصا ما يتعلق بتعلمها . وقد وضع ثورنديايك قوانينه فى التعلم عند الانسان على أساس ما شاهده عند الحيوان . لقد حور الاستاذ ثورنديايك (الذى توفى قبل سنتين) كثيرا من قوانينه فى التعلم عند الانسان وذلك لفساد الكثير منها نتيجة لتقدم علم النفس التجريبى . وقد بالغ ثورنديايك ، مع الأسف الشديد ، فى تعميم قوانينه التى استخلصها من سلوك بعض الحيوانات وحاول عبثا الرجوع اليها فى تفسير سلوك الانسان . وقد شك كثير من علماء النفس فى صحة

قوانينه ، ليس فيما يختص بسلوك الانسان فقط بل وحتى بسلوك الحيوان أيضا ، ومن طريف ما ذكره بعض علماء النفس الالمان فى معرض الرد على ثورنديك وتولمان ، بأن الحيوانات التى أجرى ثورنديك عليها تجاربه كانت غبية ولا مسوغ لاستخلاص قوانين عامة من سلوكها •

(٥) علم النفس التطبيقى — الذى يحاول الاستفادة من كافة القوانين النفسية الصادرة من مختلف بحوث علم النفس والاهتمام بتطبيقها والاستفادة منها فى الحياة التى يحياها الناس • وقد أوجد هذا العلم الاستاذ هوكو منستر بوك عام ١٨٧٠ •

(٦) علم النفس السلوكى — وموجده الاستاذ وطسن أثناء الحرب العالمية الأولى • وهو ينكر الوراثة بمعناها البايولوجى لاسيما الغرائز ويؤمن بالوراثة الاجتماعية وأثر البيئة فى تغير سلوك الافراد • وقد بلغ هذا العلم أوج عظمته فى الولايات المتحدة فى عشر السنين التى تلت الحرب العالمية الاولى غير أن نفوذه أخذ بالتضاؤل منذ ذلك الحين •

(٧) علم نفس الطفل وهو يهتم بدراسة دور الطفولة وأهميته فى سلوك الانسان • لقد كان الطفل فى الماضى يعد رجلا مصغرا ليس له علم النفس الخاص به والذى يميزه من عالم الراشدين • غير أن الاهتمام بالطفل قد أخذ شكلا علميا منذ أن ظهر كتاب أميل لمؤلفه جان جاك روسو • وقد جرت بحوث يصعب حصرها فى ثلاثين السنة الماضية فيما يختص بدور الطفولة وأهمية ذلك الدور فى حياة الانسان • ويعد الاستاذ براير من أوائل المشتغلين فيه سنة ١٨٨١ وكذا الاستاذ ستانلى هول عام ١٨٩١ •

(٨) علم النفس العيادى — وهو العلم الذى يدرس سلوك بعض المرضى النفسيين دراسة تشبه دراسة الطبيب للمرض •

(٩) علم النفس المقارن — وهو يدرس مختلف مدارس علم النفس ويقارنها مع بعضها وقد أوجده الاستاذ منستر برك سنة ١٩٠٠ •

(١٠) علم النفس الاجرامى وهو يدرس الاجرام دراسة نفسية ويحاول معرفة أثر كل من البيئة والوراثة فى الاجرام عند الناس •

(١١) التحليل النفسى أو علم نفس العمق — وهو المذهب الفرويدى المعروف •

(١٢) علم النفس التطورى ويبحث فى نشوء الفرد وتطوره من الوجهة النفسية ٠

(١٣) علم نفس الاختلافات ويبحث فى الفروق بين الافراد فى الجنس الواحد وفى الفروق بين الاجناس المختلفة وأول من قال به فرنسيس كالتن عام ١٨٨٣ ٠

(١٤) علم النفس الملفق Eclectic وهو الذى يستند على فروع علم النفس فى تفسير سلوك الكائن الحى ٠ ويعتقد بأن فى كل منها نقاط ضعف وفى كل منها نقاط قوة فيهمل النواحى الضعيفة ويحاول الاستفادة من النقاط القوية فى دراسة سلوك الانسان ٠

(١٥) علم النفس التربوى – وهو العلم الذى يبحث فى القضايا النفسية والقوانين السايكولوجية من حيث علاقتها بالتربية والتعليم ٠

(١٦) علم النفس التحسسى ، أو علم النفس الموضوعى ، وهو العلم الذى يعتمد على الحقائق الموضوعية ولا يؤمن بالقضايا الفرضية غير المحسوسة أو المشاهدة ٠ وهو رد فعل لعلم النفس غير المبنى على الحواس ومن أشهر المشتغلين فيه فيجنر سنة ١٨٦٠ وبرنتانا عام ١٨٦٥ ٠

(١٧) علم نفس استخدام العمال ، وهو الذى يدرس نفسيات العمال ويحلل سلوكهم وعوامل الاستفادة من نشاطهم واهتمامهم بالعمل ٠ ويعالج قضايا السأم عند العمال ويقترح وسائل علاجها ٠

(١٨) علم النفس التجريبى ، وهوالذى يبنى دراسته على التجارب فى المختبرات ٠ ويرجع الفضل فى نشوئه الى ووند ١٨٧٩ ٠ وقد أحدث هذا العلم تغيرا ملحوظافى كل من مركز علم النفس وأهميته فى الحياة ٠ وتشعبت منه فروع عديدة ٠

(١٩) علم نفس الملكات العقلية ، ويبحث فى عقل الانسان بمعناه الفلسفى وفى ملكاته الموروثة ٠ وقد لعب دورا كبيرا فى حقل التربية والتعليم ورافقته نظرية الترويض العقلى المعروفة فى التربية ٠ وهو فى أسلوبه يناقض علم النفس التحسسى مناقضة تامة ٠ ومن أشهر المشتغلين فيه وولف ١٧٣٤ ٠

(٢٠) علم نفس الجماهير ويبحث فى نفسية الجماعات وفى دوافع

سلوكهم • ويتطرق الى تحليل عوامل الاضطرابات والمظاهرات والثورات، ومن أشهر دعاته ووند وغوستاف ولوبون •

(٢١) علم النفس البايولوجي المبنى على نظرية دارون فى النشوء والارتقاء •

(٢٢) علم نفس الكشتالت وقد أوجده كلر وكوفكا وزملاؤهما أثناء الحرب العالمية الاولى نتيجة لتجاربهم على القردة •

(٢٣) علم النفس الفردى وقد أوجده الفريد أدلر أحد اتباع فرويد المنشقين عنه • لقد خالف أدلر أستاذه فرويد فى الاهتمام بأثر الدافع الجنسى فى سلوك الافراد • وأعتقد بأن العامل الجنسى ثانوى بالنسبة لغريزة السيطرة وحب الذات •

(٢٤) علم النفس الصناعى وهو، كما يدل عليه اسمه ، مختص بدراسة الصناعة دراسة نفسية •

(٢٥) علم النفس الفسلجى ويهتم بدراسة الظواهر النفسية من حيث أسسها الفسلجية •

(٢٦) علم النفس الدينى ويبحث فى الاسس النفسية للدين •

(٢٧) علم النفس الاجتماعى ويبحث فى سلوك الجماعات •

(٢٨) علم نفس الجنس ccui وهو يبحث فى الاجناس البشرية بحوثا نفسية •

وهناك عدا ما ذكر علوم نفس أخرى يصعب ايجاد أسماء لها فى اللغة العربية وبعضها يتعلق بدراسة المرضى النفسيين وبعض الشواذ فى سلوكهم وأشهرها : Psychopology ،Psychosomatic ،Psychiatry

بغداد

فوزى جعفر